قراءات ومراجعات

مراجعة لكتاب
منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية*
تأليف: فتحي حسن ملكاوي**

عبد العزيز بوالشعير***

يمثّل هذا الكتاب قيمةً معرفيةً ومنهجيةً مهمةً في الفكر الإسلامي المعاصر، ويعالج مسألةً خطيرةً في الفكر المعاصر عموماً، والفكر الإسلامي بوجه خاص. ولا ريب في أنّ التكامل المعرفي أسهم إسهاماً فاعلاً في تشخيص أزمة الفكر والمعرفة المعاصرين، وبيان الحاجة إلى الإصلاح الفكري والمنهجي؛ إذ تُعدّ هذه العملية مدخلاً منهجياً وتربوياً وتعليمياً، وأساساً وقاعدةً لمباشرة عملية الإصلاح الفكري، وصولاً إلى بناء الوعي المنهجي واستشراف العالم. يُنظر إلى هذه العملية أيضاً بوصفها مُوجّهاً لكيفية ممارسة التفكير السليم، ومنهجية البحث والسلوك، المحكومة بمنظومة القيم العليا.

والكتاب في اعتقادنا هو أول محاولة علمية جادة ممنهجة -بعد الدراسة الأكاديمية التي قام بها إبراهيم أبو بكر محمد أحمد، الموسومة بـ: "التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية"، في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ونشرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ٢٠٠٧م- أراد صاحبها أن يرتقي بموضوع التكامل المعرفي من مستوى الفكرة إلى مستوى الكتابة، والتأسيس النظري والمنهجي الذي يرسم معالم الطريق

---

* ملكاوي، فتحي حسن. **منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١١م.

** دكتوراه في التربية العملية وفلسفة العلوم. المدير الإقليمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي. البريد الإلكتروني: fathihmalkawi@gmail.com

*** دكتوراه في فلسفة العلوم من جامعة منتوري في قسنطينة بالجزائر. أستاذ محاضر في قسم الفلسفة بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة محمد لمين دباغين سطيف-الجزائر، ومدير مخبر المجتمع الجزائري المعاصر. البريد الإلكتروني: bouch_abde01@yahoo.fr

تم تسلم المراجعة بتاريخ ٢٠١٤/١١/١٠م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٥/٢/٢٦م.

للباحثين والأساتذة في الجامعات ومراكز البحث، ويُعينهم على التأليف وكتابة البحوث في موضوع التكامل المعرفي وَفق المقاربة المنهجية التي لم تنضج بعدُ لدى كثير من الطلبة والباحثين الذين يُفكّكون نسق المعرفة إلى علوم وآداب وأخلاق من دون الربط بينها بناظم معرفي ومنهجي ينتظمها. وتأسيساً على ما سبق، يمكن اعتبار كتاب "منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية" محاولةً جادةً لإصلاح مناهج الفكر الإسلامي المعاصر التي تعاني اختلالاً في الرؤية، واضطراباً في المنهج، وقصوراً في المنهجية. ولتحقيق هذا الهدف جاء هذا الكتاب الذي يُعدّ حلقةً أخرى من الدراسات المنهجية المميّزة التي تعنى بتوضيح مفهوم التكامل المعرفي، وعلاقته بوحدة المعرفة، والتوحيد، ورؤية العالم الإسلامية. فكان لزاماً بيان مفهوم المنهاج والمنهج والمنهجية، والمفاهيم الفرعية المشتقة عنها، والمفاهيم ذات العلاقة المعرفية المصاحبة لها: الوعي المنهجي، والخلل المنهجي، ومنهجية التفكير، ومنهجية البحث، ومنهجية السلوك، ومصادر المنهجية، وأدوات المنهجية، ومبادئ المنهجية، والتكامل المعرفي، ومعادلة التكامل المعرفي. والكتاب بهذا الوصف والعرض يوافق مقصود الطلبة، ويفي بحاجاتهم العلمية والتربوية والمنهجية؛ إذ يُعدّ الاشتغال بتوضيح المفاهيم وبيان معانيها ودلالاتها شرطاً تعليمياً مهماً يتطلّبه الدرس المعرفي والمنهجي في الدورات التدريبية، والدراسات العليا، وحلقات تعلّم التفكير المنهجي في صورتيه: الفردية، والجماعية.

يُذكر أنّ كثيراً من المشكلات التي يعانيها الطلبة في أثناء الدرس والتحصيل، تتمثّل في غموض المفاهيم، وصعوبة استكناه دلالاتها، ممّا يُؤثّر سلباً في تحصيلهم العلمي؛ لذا، فإنّ بيان المفاهيم الإجرائية التي اعتمدها المؤلِّف، وما أشار إليه من حقل الاشتغال العلمي والبحثي في بداية الكتاب، يُعدّ ركيزةً أساسيةً لأيّ جهد علمي في هذا المضمار، خاصةً أنّه يستهدف أعضاء هيئة التدريس في الجامعات، وطلبة الدراسات العليا.

وقد اشتمل الكتاب على مقدّمات في المنهجية الإسلامية، إلّا أنّه لم يتناول القضايا الفرعية والمسائل الجزئية للتكامل المعرفي، ونأمل أن يواصل الدكتور فتحي حسن ملكاوي الكتابة والتأليف في موضوع التكامل؛ توسيعاً لهذا الموضوع، وتحليلاً لعناصره، من أجل

الإسهام في حلّ أزمة الفكر المعاصر، خاصةً إذا علمنا أنّ المؤلِّف ناقد متميِّز اجتمع له العلم الواسع، والخبرة الكافية، والدراية العميقة بموضوع التكامل المعرفي وحاجة الفكر الإسلامي إليه.

يقع هذا الكتاب في ٣٣٥صفحة، وقد قسّمه صاحبه إلى سبعة فصول، وضمّنه مقدّمة، وملحوظات ختامية، وملاحق. وبالنسبة إلى أهداف الكتاب، فقد عمد المؤلِّف إلى ذكرها في بداية كل فصل، وأكّد في المقدّمة أهمية البُعْد المعرفي والبُعْد المنهجي في دعم جهود الإصلاح والنهوض الحضاري الإسلامي؛ إذ يختص البُعْد المعرفي بالمحتوى النظري للفكر البشري، والتمييز بين مستوياته (الحقائق، والمفاهيم، والمبادئ، والنظريات)، في حين يختص البُعْد المنهجي بالجانب العملي لهذا الفكر، مُمثَّلاً في عناصره الثلاثة: طرق التفكير وأساليبه، وإجراءات البحث وخطواته، وحوافز السلوك ودوافعه.

وقد حاول المؤلِّف في **الفصل الأول** "مفاهيم في التكامل المعرفي"، أن يوضّح بعض مفاهيم التكامل المعرفي في سياقاتها التاريخية الحديثة والمعاصرة، وعلاقتها بمفاهيم أخرى مثل: وحدة المعرفة، ورؤية العالم أو الرؤية الكونية، وتصنيف العلوم، وإسلامية المعرفة، فضلاً عن بيان طبيعة القضية التي يعنى بها التكامل المعرفي، ومعوقات تحقيق الهدف الرئيس للتكامل المعرفي.

لخّص المؤلِّف أهداف هذا الفصل على النحو الآتي: تحديد دلالة مفهوم التكامل المعرفي، وتوضيح المفاهيم والدلالات ذات العلاقة، وتوضيح العلاقة بين التكامل المعرفي ووحدة المعرفة، وبيان كيف يتأسّس التكامل المعرفي على مبدأ التوحيد، وتحديد موقع التكامل المعرفي في رؤية العالم الإسلامية، وتأكيد أنّ ثمة محاذير ومعوقات تعترض طريق التكامل المعرفي. ويرى المؤلِّف أنّ التكامل المعرفي هو الإطار المرجعي للمنهجية الإسلامية؛ في: التفكير، والبحث، والتعامل الرشيد مع مسائل العلم والسلوك في الحياة. ثمّ استخلص معادلة التكامل المعرفي في عناصرها ومجالاتها الثلاثة: التكامل بين المصادر، والتكامل بين الأدوات، والتكامل بين المصادر والأدوات.

بين التكامل المعرفي ووحدة المعرفة

ثمّة بُعْدان لعملية التكامل المعرفي، هما: البُعْد الإنتاجي، والبُعْد الاستهلاكي. فالتكامل المعرفي في بُعْده الإنتاجي هو صورة من صور الإبداع الفكري الذي يحتاج إلى قدرات خاصة. على سبيل المثال، فإنّ التكامل بين معارف الوحي والعلوم الإنسانية والاجتماعية في صياغاتها الغربية المعاصرة، تتطلّب وجود عالِم باحث يستلهم هداية الله –سبحانه– في فهم مقاصد النصوص والأحكام، وكيفية تنزيلها على الوقائع والأحداث، ضمن إطار ثقافي حضاري معاصر. أمّا البُعْد الاستهلاكي فيتعلّق بتوظيف الأبنية الفكرية التي يقوم عليها التكامل في فهم الظواهر أو القضايا موضع الدراسة، وتمييز العناصر المميّزة للمعرفة في إطارها التكاملي، وتسهيل نقل هذه المعرفة إلى الآخرين.[١]

وحدة المعرفة أساس عملي لتكاملها

يشير المؤلِّف إلى اتصال مفهوم التكامل المعرفي بمفهوم وحدة المعرفة؛[٢] ذلك أنّ وحدة المعرفة تشكّل الأساس المنطقي لتكاملها، مُؤكِّداً مبدأ التوحيد في الإسلام عند الحديث عن وحدة المعرفة والتكامل المعرفي. وقد اعتمد المؤلِّف في تدعيم موقفه على بعض النظريات العلمية المعاصرة، مثل مقاربة أوتكي Utke الذي يرى صاحبها أنّنا دخلنا عصر ما بعد الحداثة الذي "سترافقه ثورات تتداخل فيها قوى المادة والعقل لإحداث تغييرات جذرية في سلوك الإنسان فيما يتعلق بالطبيعة، ترافقها بالضرورة تغييرات في نظرة الإنسان واتجاهه العقلي، بعيداً عما عهده خلال عهد الحداثة، من التفكير السطحي بالحقيقة الراهنة."[٣] والنتيجة هي أنّنا سندخل عصر ما بعد الحداثة الذي قد تتحقّق فيه

---

[١] ملكاوي، **منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٧–٢٨.

[٢] توجد كتابات عدّة تناولت وحدة المعرفة، لكنّها تقوم على ثنائية الكون والعقل فقط، من دون الرجوع إلى مبدأ الوحي بوصفه مصدراً للمعرفة، وناظماً منهجياً لها: "في الكون نظام، وفي العقل نظام، والمعرفة هي مطابقة هذين النظامين، والنظامان من معدن واحد، والمطابقة بينهما ممكنة لما فيهما من تشابه، ولو لم يكونا متشابهين لاستحالت المعرفة." انظر:

– حسين، محمد كامل. **وحدة المعرفة**، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤، ص١.

ولا أعتقد أنّ هذا هو مقصود التكامل المعرفي ولا محتواه؛ لأنّه يقوم على رؤية اختزالية وانشطارية لمنظومة المعرفة ومكوّناتها، من حيث: مصادرها، وأدواتها، وهرميتها، وتصنيف العلوم التي تنجز عنها.

[٣] ملكاوي، **منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٣٠.

وحدة المعرفة كما يرى أوتكي، وأنّ مستقبل العلوم سوف ينتهي بوحدتها مثلما يؤكّد العالِم الفيزيائي محمد عبد السلام في بحوثه التي عَرَّفت بنظريته في الكهرباء الضعيفة electroweak theory.

وقد عدّد المؤلِّف بعض ألوان الخطاب الإسلامي عن وحدة المعرفة وتكاملها باستعراض جهود علماء الإسلام الأُول الذين أكّدوا وجوب المحافظة على وحدة العلوم والمعارف التي ترتبط جميعها بمبدأ التوحيد. ثمّ حذّر المؤلِّف من مخاطر الفصل بين الإسلام والعلم، التي يُؤمِن بها بعض مثقّفي الإسلام المعاصرين نتيجة تأثّرهم بالرؤية الغربية التي تُميّز العلم من الدين، ودعا إلى ضرورة إقامة رابط توحيدي عميق بينهما، انطلاقاً من الطبيعة التكاملية للعلوم الطبيعية والبيولوجية نفسها. فقد كشفت الدراسات المعاصرة والبحوث الجديدة عن الخاصية التكاملية والنسقية للمعرفة العلمية المعاصرة، التي تجمع فروع العلم المختلفة في بناء نسقي واحد؛ ذلك أنّ "خاصيتي التكاملية والنسقية – تكمن– في أنهما تؤكدان حقيقة أن المعرفة البشرية تسير وتتطور في انسجام رائع نحو المزيد من التجريد والتعميم."[٤]

مبدأ التوحيد أساس مفهوم التكامل المعرفي

يستند المؤلِّف في بيان أهمية مبدأ التوحيد، بوصفه أساساً للتكامل المعرفي، إلى كتابات إسماعيل الفاروقي –يرحمه الله– الذي أفرد كتاباً مستقلاً عن التوحيد، ربط فيه العقيدة بكل وجوه الحياة، وبيّن فيه تكامل الرؤية التوحيدية وجمْعها بين الأبعاد الحضارية: النظرية–الفلسفية، والعملية التطبيقية. أبرز الفاروقي في كتابه حقيقة التوحيد بوصفه رؤيةً عامةً إلى الحقيقة، والكون، والزمان، والمكان، والتاريخ الإنساني، والمصير، وكذلك مجمل نظام الحياة الشمولي في الإسلام؛ إذ يؤثّر التوحيد في جميع عناصر الحضارة الإسلامية، لما يقيمه بينها من روابط محدّدة. ومن الجدير بالذكر أنّ الحضارة الإسلامية تمتاز بالتنوّع، والشمول، والتعدّد في المذاهب والمدارس والاتجاهات والفِرق، وتتراوح بين البسيط والمعقّد، وتقوم في معظمها على مبدأ التوحيد. وهي حضارة شاملة تضم مجالات المنطق، ونظرية المعرفة والغيب والأخلاق.[٥]

[٤] المرجع السابق، ص٣٢–٣٣.

[٥] انظر: ملكاوي، فتحي حسن. **منظومة القيم العليا: التوحيد والتزكية والعمران**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص٤٨ وما بعدها.

ويستمر المؤلِّف في عرض رؤية الفاروقي لمبدأ التوحيد، بوصفه أساساً للتكامل المعرفي، ببيان حقيقة هذا المبدأ الذي يميّز الخالق المتعالي من الكون المخلوق، وضرورة الاعتراف بوحدة الحقيقة التي تؤكّدها حتمية الاعتراف بوحدانية الله. وهذه الأخيرة (وحدة الحقيقة) تقتضي منهجياً الإقرار بمبادئ فرعية ثلاثة، هي: رفض جميع ما يتعارض مع الحقيقة، وإنكار التناقض، والانفتاح على الأدلة الجديدة.[٦]

رؤية سيد حسين نصر لوحدة المعرفة وتكاملها

لقد عَدّ سيد حسين نصر التوحيد أعلى صور المعرفة في الترتيب الهرمي للعلوم، والغاية النهائية من جميع المساعي الفكرية للإنسان المسلم، مُركِّزاً على العلوم الطبيعية من دون العلوم الأخرى، فاستخدم مصطلح "علم الكونيات" أو "المعرفة الكونية" cosmological knowledge؛ لأنّ "مشروعية دراسة هذه العلوم باستمرار تعتمد على تعبيرها عن الاتصال والتداخل والتكامل ضمن الوحدة الكُلّية للخلق الإلهي. ويكون العلم الذي يتسق مع روح الإسلام هو العلم الذي يسعى في نهاية المطاف إلى تكامل الجزئيات ضمن الكلّ الواحد، ويأخذ مشروعيته من العقيدة الأساسية في الإسلام وهي التوحيد بجميع معانيه."[٧] وتأسيساً على ذلك، فقد عَدّ سيد حسين نصر العلم متضمّناً في المعرفة التوحيدية، ومتكاملاً معها؛ كون الوحي الإلهي هو مصدر المعرفة الغيبية عن العالم التعدّدي الذي تتعامل معه العلوم.

التكامل المعرفي في الرؤية الإسلامية للعالم

ربط المؤلِّف مسألة التكامل المعرفي بالرؤية الإسلامية للعالم؛ لأنّ التكامل المعرفي في مفهومه الصحيح لا يتحقّق إلّا في إطار رؤية العالم التي مكّنت العقل المسلم من تطوير فهمه السليم للكون والحياة والإنسان. ويُعرِّف المؤلِّف رؤية العالم بأنّها "النظرة الشاملة إلى العالم التي تأخذ جميع الأجزاء والعناصر والمكوّنات والنظم بالحسبان. ورؤية لحقائق

[6] Faruqi. Ismail R. *AL–TAWHID: Its implication for Thought and Life*, Herndon: IIIT, Second Edition, 1412/1992, P43, 44.

[٧] ملكاوي، **منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤١.

الأشياء في إطارها الأشمل، وهي قواعد وأطر مرجعية للفكر والسلوك ضمن نظام القيم العام للمجتمع. والصورة التي يدرك فيها العقل الإنساني حقائق الكون والحياة والإنسان. وإجابات الأسئلة الوجودية والمعرفية والقيمية بخصوص هذه الحقائق والعلاقات بينها."[٨]

وقد عمد المؤلِّف إلى عرض آراء ثلّة من العلماء والباحثين في قضية التكامل المعرفي، فبدأ بالدراسة التي أعدّها أبو بكر محمد أحمد عن التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية، والتي توصّل فيها إلى أنّ التكامل المعرفي يرتبط -إلى حد كبير- بإسلامية المعرفة، على الرغم من الغموض الذي اكتنف بعض البحوث المتحمّسة لهذا المشروع، التي أساء أصحابها فهم التكامل المعرفي والخطوات العملية والعلمية المطلوبة لإنجازه.[٩] وقد حدّدت الدراسة خطوات إنجاز العملية، بوصفها مشروعاً إصلاحياً فكرياً حضارياً، في ثلاث خطوات؛ أُولاها: إعادة فهم مصادر الإسلام في ضوء القيم الحاكمة والمقاصد العامة، ونقد التراث. والثانية: التفاعل الإيجابي التحليلي النقدي مع المعرفة الإنسانية المعاصرة، والكشف عمّا تمثّله هذه المعرفة من حقائق الفطرة والسنن والوقائع والطبائع المتوافقة مع روح الإسلام. والثالثة: صياغة المعرفة الراهنة، وإنتاج معارف جديدة ضمن الرؤية الكونية الإسلامية التي تقوم على مبدأ التكاملية بين هداية الوحي وسنن الفطرة. وبهذا ننتقل بالتكامل المعرفي من كونه عمليةً معرفيةً نظريةً تجريديةً إلى كونه عمليةً نفسيةً تربويةً تعليميةً تُحرّر العقل، وتُربّي الوجدان، وتضبط السلوك.[١٠]

ثمّ عرض المؤلِّف رأي عبد الحميد أبو سليمان، الذي أوضح البُعْد التوحيدي التكاملي في الرؤية الكونية، ورأى أنّها رؤية شمولية علمية سُنَنية؛ رؤية إيجابية، ورؤية حبّ وخير وتسخير وإعمار، تعكس قوى الحب والضمير والعقل والمعرفة، وتقابلها قوى الإرادة

[٨] المرجع السابق، ص٤٤-٤٥. لتعرّف المزيد عن موضوع الرؤية الكونية، انظر الفصلين الأول والثاني من كتاب:
- برغوث، عبد العزيز. **الرؤية الكونية الإسلامية والتجديد: دراسة من منظور حضاري**، كوالالمبور: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ط١، ٢٠٠٦م، ص٨؛ إذ يعدّ الرؤية الكونية الإسلامية "التعبير الأساسي عن حقائق الإسلام ومبادئه ومقوماته وتصوراته الكونية الوجودية والأخلاقية الشاملة لقضايا وموضوعات الإنسان والحياة والكون والتاريخ."

[٩] إبراهيم، أبو بكر محمد أحمد محمد. **التكامل المعرفي وتطبيقاته في المناهج الجامعية**، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص٣٣.

[١٠] ملكاوي، **منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٤٦-٤٧.

الخيّرة، والوجدان السليم، والعقيدة الصحيحة، والإيمان الصادق. وهذه الرؤية "تنطلق من مفهوم الذات الإلهية المطلق، ومن مبدأ التوحيد تنطلق الرؤية القرآنية إلى مبدأ التوحّد والتكامل في فهم علاقات الكون والحياة... وأنّ بناء الكون والحياة والإنسان؛ وحدة في تنوّع متكامل، وتنوّع متكامل في وحدة."[١١]

المحاذير والمعوقات التي تعترض طريق التكامل المعرفي

نبّه المؤلِّف على جملة من المحاذير والمعوقات التي قد يقع فيها بعض الباحثين، فلا يتحقّق مقصود التكامل المعرفي ومبتغاه في الفكر والحياة. ويكون ذلك في حال عدم الفهم السليم والتنزيل الصحيح للتكامل المعرفي، بوصفه رؤيةً معرفيةً، وخططاً عمليةً في صورة برامج بحثية ومناهج دراسية. فقد يغرق هؤلاء في المشكلات الجزئية، وينتهي بهم المطاف إلى تسطيح العملية واختزالها في عموميات لا تلامس عمق التكامل المعرفي الذي يقوم على أنواع جديدة من المهارة والكفاءة والحكمة، تستند إلى التركيب والمواءمة بين المعلومات اللازمة في الوقت الصحيح؛ لأنّنا قد نغرق في غياهب المعلومات، ونموت جوعاً إلى الحكمة.

أمّا **الفصل الثاني** الموسوم بـ: "المنهج والمنهجية: طبيعة المفهوم وأهمية البحث فيه"، فقد أورد فيه المؤلِّف أهدافه الرئيسة المتمثّلة في: بيان دلالات المفهوم القرآني للمنهاج، وعلاقته بالمفاهيم القرآنية الأخرى ذات العلاقة، مثل: الصراط، والسبيل، والهدى...، والتمييز بين المنهج بوصفه طريقة الوصول، والمنهجية بوصفها علم الطريقة، وبيان أوجه الحاجة إلى البحث في المنهج والمنهجية، وعرض أمثلة من وعي الفكر الإسلامي المعاصر على المنهج والمنهجية، وتوضيح دلالة مفهوم رؤية العالم، والنظام المعرفي، والنموذج الإرشادي، والنموذج التفسيري، وموقع المنهجية فيها.

وقد استهل المؤلِّف هذا الفصل ببيان قضية المنهجية في الفكر الإسلامي؛ نظراً إلى أهميتها في منهجية التفكير، والبحث لاستقصاء المعرفة واختبارها وتوظيفها، والتعامل مع

[١١] أبو سليمان، عبد الحميد. **الرؤية الكونية الحضارية القرآنية**، فيرجينيا- القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٨٤-١٨٥.

مصادر الإسلام وأصوله التأسيسية، والتعامل مع التراث الإسلامي والتراث الإنساني، والتعامل مع واقع الأُمّة المعاصر، أو واقع العالم المعاصر. وهي قضايا مهمة جدّاً لا يمكن للعقل المسلم أن يُحقّق النهوض والشهود الحضاريين من دون تجاوز أشكال الخلل المنهجي في التفكير، والبحث، والتعامل مع الأمور. فالكتاب بهذا المعنى يُعدّ دعوةً، وورقةَ عملٍ للباحثين والمفكّرين والطلبة؛ للارتقاء بمستوى المنهجية، والتمكّن من متطلّبات التفكير المنهجي ولوازمه وميادينه؛ إذ إنّ كثيراً من حالات الإخفاق والفشل في الجهود الإصلاحية التي لازمت العالم الإسلامي طوال قرنين من الزمن أو يزيد، مردّها الخلل في منهجية التفكير والتغيير والتدبير. ومن ثمّ، فإنّ إدراك المؤلِّف عمق المشكلة التي يعانيها العقل المسلم، دفعته إلى الإشارة إلى قضية البحث في المنهجية والتفكير المنهجي، والانتقال من مستوى النظر إلى مستوى العمل والممارسة؛ تحقيقاً للفعالية والصواب في الفكر والسلوك، ثمّ النجاح في تحقيق التغيير المنشود.

ولبيان أهمية المنهاج والمنهجية، فقد عمل المؤلِّف على ضبط المفاهيم والمصطلحات، وذلك بالرجوع إلى دلالات اللفظة القرآنية، مع الإشارة إلى المفاهيم القرآنية المرتبطة بالمنهاج، مثل: الصراط، والسبيل، والسنّة، والنور، والاستقامة. فلكل أُمّة منهاجها الذي تسلكه في احتكامها إلى شريعتها، وهي جميعاً تختص بسعي الإنسان لسلوك طريق الشريعة المستقيم، الواضح، الموصل إلى الغاية المقصودة، المتمثّلة في تحقيق الاستخلاف على الأرض، وإقامة العمران البشري، ثمّ النجاة والفلاح في الآخرة.[١٢]

المنهجية والمنهاج

ميّز المؤلِّف بين لفظة المنهجية ولفظة المنهاج، وانتهى إلى أنّ المنهج أو المنهاج يتحدّد معناه بطرق البحث وإجراءاته في مجال معرفي، في حين يتحدّد معنى المنهجية بالعلم الذي يدرس هذه الطرق والإجراءات، ويتولّى تحديد الصفات والخصائص التي تتميّز بها طرق البحث؛كالقصد، والوضوح، والاستقامة،كما تذهب إلى ذلك معظم المعاجم الإنجليزية. علماً بأنّ مصطلحات المنهج والمنهاج والنهج والمنهجية ارتبطت بقضايا البحث العلمي

[١٢] ملكاوي، **منهجية التكامل المعرفي: مقدّمات في المنهجية الإسلامية**، مرجع سابق، ص٦٣، ٦٨.

وإجراءاته وأنواعه، أكثر من ارتباطها بقضايا التفكير وقضايا السلوك والممارسة. وهذا ما أكّده المؤلِّف حين أوضح أنّ مقصوده ليس الحديث في المنهج بقدر ما هو حديث عن المنهج، بمعنى التفكير في موضوع المنهج، وتأمّل قضايا ما قبل المنهج وما وراء المنهج، لا الحديث في المنهج وممارسته.[١٣]

أهمية البحث في المنهجية الإسلامية والتفكير المنهجي

أشار المؤلِّف إلى قضية المنهجية الإسلامية بوصفها محوراً أساسياً في الأزمة الفكرية التي تعانيها الأُمّة، مُؤكِّداً ارتباط المنهجية بعملية التفكير الإسلامي، وطبيعة الفكر الذي ينتج منها؛ إذ إنّها ترتبط بغايات الإسلام ومقاصده العامة، وبالواقع الذي يحاول الإسلام بناءه في المجتمع. فغياب المنهجية في التفكير والبحث والسلوك ينعكس مباشرةً على الحياة الإسلامية، فيُفقدها فاعليتها وحضورها في الحياة. لذلك، يجب الاهتمام بقضية المنهجية؛ لما لها من أهمية في إعادة بناء الأُمّة، وتمكينها من أداء دورها ورسالتها في التاريخ. ذلك الدور الذي ينطلق من بناء الفكر، وعلاج أزمته عن طريق إصلاح النظام التعليمي السائد. ويكون ذلك بغرس الرؤية الإسلامية، والكشف عن طبيعة الحضارة الإسلامية، وإعادة صياغة كل المعارف الحديثة في مناهج التدريس وَفق منظور إسلامي؛ حتى تتمكّن الأُمّة من بناء معرفة إسلامية معاصرة كما يرى إسماعيل الفاروقي.

ثمّ إنّ المنهجية ليست نصّاً مُنزَّلاً يقف فيه الإنسان موقف المتلقّي بحسب تعبير عبد الحميد أبو سليمان، و"إنما هي جهد إنساني لفهم التفاعل المطلوب بين توجيهات النص وقضايا الواقع، بهدف تحقيق غايات الدين ومقاصده."[١٤] ويمكن إجمال أركان المنهج – بالإضافة إلى تكامل مصادر المعرفة: الوحي والكون، وتحرير العقل الإسلامي وإطلاق طاقاته– في المناحي الأساسية الآتية: فهم النصوص تبعاً لمقاصد الدين، والجمع بين جميع النصوص التي تتعلّق بموضوع البحث، وفهمها في إطارها الزماني والمكاني، واستلهام حكمة تنزيلها على الواقع المعاصر. وهي أركان ليست بعيدةً عن تصور طه جابر العلواني

[١٣] المرجع السابق، ص٧٤.

[١٤] المرجع السابق، ص٨١.

الذي حدّدها بالمحاور الآتية: المنهج، والفكر، والثقافة، والتربية، والمدنية، والعمران. ثمّ طوّرها فيما بعدُ لتصبح ستة محاور، هي: بناء الرؤية الكونية الإسلامية، وبناء المنهجية الإسلامية، وبناء مناهج التعامل مع القرآن الكريم، وبناء مناهج التعامل مع السنّة النبوية، وبناء مناهج التعامل مع التراث الإسلامي، وبناء مناهج التعامل مع التراث الإنساني.

مفاهيم أساسية ذات صلة بالمنهاجية

تطرّق المؤلِّف إلى المفاهيم الأساسية المتعلّقة بالمنهاجية، وهي: رؤية العالم بوصفها أساس كل نظرية للمعرفة، والنموذج الإرشادي، والنموذج التفسيري، والنظام المعرفي. وقد اقترح نموذجاً للعلاقة بين رؤية العالم والنظام المعرفي والمنهجية، حدّد فيه ثلاثة مستويات مترابطة ومتكاملة لرؤية العالم، هي: تصور ذهني للعوالم الطبيعية والاجتماعية والنفسية، وموقف من العالم يستدعي إقامة علاقة بهذه العوالم، وخطة لتغيير العالم؛ كونها مجموعة من الأهداف التي يسعى الإنسان بتحقيقها إلى جعل العالم أكثر انسجاماً وتوازناً. ولهذه الرؤية علاقة بالنظام المعرفي الذي تربطه علاقة بالمنهجية؛ فهي علاقة عام بخاص، بمعنى أنّ النظام المعرفي هو حلقة داخل رؤية العالم، والمنهجية هي حلقة داخل النظام المعرفي. فرؤية العالم أعمّ من النظام المعرفي، وهذا الأخير أعمّ من المنهجية.

يختتم المؤلِّف الفصل الثاني بتأكيد اعتماد المرجعية القرآنية في تحديده دلالات المفاهيم؛ ذلك أنّ مفهوم المنهج/ المنهاج -وَفق المرجعية القرآنية- هو مفهوم قرآني يتصف بالعموم والشمول. ثمّ يشير إلى أنّ للمنهج قواعدَ عامةً تضبط الفكر الإنساني في تعامله مع قضايا المعرفة وموضوعاتها، اعتماداً على رؤية العالم التي يتبناها العالم أو الباحث. ويخلص المؤلِّف إلى أنّ ثمّة قدراً من الوعي بضرورة تطوير "منهجية إسلامية"، ومنهجية التكامل المعرفي.[١٥]

وأمّا **الفصل الثالث** فقد حمل عنوان: "الوعي المنهجي والخلل المنهجي"، وقصد فيه المؤلِّف تحقيق الأهداف الآتية:

[١٥] المرجع السابق، ص١١٣.

١. توضيح المقصود بالوعي المنهجي، وعلاقته بأشكال الوعي الأخرى.

٢. بيان أهمية توافر الوعي بالمنهج والمنهجية، وصور هذا الوعي لدى فئات المنظّرين المعاصرين للفكر الإسلامي.

٣. رصد بعض صور الخلل المنهجي الشائعة، وتمثّلاتها في واقع الأُمّة ومجتمعاتها.

فالوعي المنهجي كما يرى المؤلِّف هو "الحالة التي تعبّر عن إدراك الواقع القائم ومنهج تغييره إلى الواقع المشهود."[١٦] على شرط أن يكون وعياً كلياً، لا وعياً جزئياً، كما هو الحال لدى كثير من المثقفين؛ لأنّ الوعي "المنشود هو الوصول بالوعي المنهجي إلى حالة من الوعي الكلي الذي يستند إلى التدبر الهادف، وتحكمه رؤية كلية للعالم، ويُعمل المعيار القيمي والمسؤولية الأخلاقية، ويتمدد في مساحاته، ويتعمق في درجته حتى يصبح "ثقافة منهجية حية" عامة قادرة على الإسهام في إصلاح واقع الأمة."[١٧]

ونظراً إلى غياب هذا النوع من الوعي؛ فإنّ المؤلِّف ينبّه على ضرورة الوعي بأهمية المنهج وممارسته في مستوياته الثلاثة: مستوى التفكير المنهجي، ومستوى البحث المنهجي، ومستوى السلوك المنهجي. ففي ظل غياب هذه المستويات يكون الأفراد والمجتمعات واقعينَ في الخلل المنهجي الذي يتخذ هو الآخر ثلاثة أشكال، هي: الخلل في امتلاك الرؤية الكلية للعالم. والخلل في فهم الواقع، وأساليب التعامل معه. والخلل في تفسير الظواهر، وإدراك علاقة الأسباب بالنتائج.

من هنا جاءت الدعوة إلى ضرورة توفر الوعي المنهاجي مع وضوح خطوات بنائه، وذلك بتمييز عملية بناء المفاهيم من عملية بناء الأطر المرجعية؛ للتحقّق من فاعلية المفاهيم في فهم الواقع والارتقاء به. وقد أشار المؤلِّف إلى علاقة الوعي المنهجي بمنهجية تفكير الإنسان الذي مردّه تفاعل ثلاثة عناصر، هي: المدركات القَبْلية المستقرة في الذهن. والأدوات التي يستخدمها، والعمليات العقلية والشعورية، وملكات الحدس. والحقائق الموضوعية المرتبطة بالواقع.

[١٦] المرجع السابق، ص١١٧.

[١٧] المرجع السابق، ص١١٧.

فالعقل الإنساني يُنظّم هذه العناصر من أجل فهم الواقع في أبعاده الطبيعية والاجتماعية، وإدراك موضوعاته وظواهره، وتفسيرها وبيان دلالاتها وإمكانات توظيفها في الفهم والسلوك.[١٨]

وقد أشار المؤلِّف إلى ما يمكن أن ينتج عن افتقاد الأُمّة إلى الوعي المنهجي الذي انحرف بها عن وظيفتها، فسادت حالات من اليأس والإحباط الذي تغلغل في أعماق النفوس، وهو ما أحيا الإحساس بأهمية التفكير المنهجي، وجعله يستحوذ على اهتمامات الكتّاب المعاصرين؛ لأنّ أزمة المسلمين الحقيقية هي أزمة في منهجية التفكير أساساً.

مظاهر الخلل المنهجي في واقع الأُمّة

يرى المؤلِّف أنّ مظاهر الخلل المنهجي تتمثّل في تكوين الشخصية الإسلامية المعاصرة، من جانبين اثنين:

الأول: الجانب العقلي المتمثّل في الغبش في رؤية العالم، وما ينبثق عنه من تصورات عن الكون والحياة والإنسان.

الثاني: الجانب النفسي المتمثّل في ضعف الإرادة والمبادرة، والخلل في تفكير المسلمين في مسائل الفهم والشعور والممارسة؛ فهو خلل منهجي يتعلّق بكيفية تحويل الفكرة إلى واقع، أو الانتقال من القناعة الذهنية إلى الممارسة في الحياة.

ويلخّص المؤلِّف مظاهر الخلل في حياة الأُمّة في أربع نقاط، هي:

- الخلل في رؤية العالم: هو خلل ناجم عن فقدان الرؤية الكلية الشمولية التي تفضي إلى فقدان الرؤية الصحيحة.
- الخلل في فهم الواقع والتعامل معه: هو خلل يرتبط بالطريقة التي يُنظر فيها إلى الواقع الطبيعي والواقع الإنساني وفهمهما، بناءً على مكوّنات الواقع والعناصر الفاعلة فيه: محلياً، وعالمياً.

[١٨] المرجع السابق، ص١٢٠.

- الخلل في ربط الأسباب بالنتائج: هو خلل يُعبّر عن ضعف الحس السببي تجاه مظاهر الطبيعة وظواهر الاجتماع.
- الخلل في معرفة الحقيقة، وعدم العمل بمقتضاها.

وأمّا **الفصل الرابع** فقد تناول فيه المؤلِّف تطور مفهوم المنهج في الفكر الإسلامي والفكر الغربي؛ فتتبّع مفهوم المنهج ودلالاته في الفكر الإسلامي، بدءاً بالمنهج في عهد الرسالة الذي كان يعني الإبلاغ من النبي والتلقّي من الصحابة، وانتهاءً بالمنهج في عهد الصحابة الذي كان يُعدّ مصدراً لتلقّي الأحكام الشرعية (القرآن، والسنّة، والاجتهاد)، ليُبيّن بعدها جملةً من المناهج التفصيلية في نشأة العلوم الإسلامية الأولى (أصول الفقه، أصول التفسير، أصول الحديث...)، ثمّ يكشف عن بعض المناهج التفصيلية في نشأة العلوم الكونية، والعلوم الاجتماعية، والعلوم النفسية، وعلاقتها بهدي القرآن في فهم الطبائع والوقائع. بعد ذلك أشار المؤلِّف إلى تعامل المسلمين مع مصدري المعرفة: الوحي، والكون، وهو تعامل يقوم على التكامل، كما هو الحال في تعاملهم مع أدوات المعرفة: الحس، والعقل؛ إذ اعتمد الفكر الإسلامي على إعمال الفؤاد والقلب، أو اللّب، مع إعطاء كل أداة دلالتها ومعناها. وقد كان ذلك استجابةً لنصوص الوحي الداعية إلى ضرورة النظر والرؤية الحسية والعقلية، بوصفها معالم ترسم منهجية التفكير والبحث التي تقود إلى المعرفة الموثوقة. وقد خلص المؤلِّف إلى أنّ التوفيق بين الآيات المسطورة والآيات المنظورة التي شكّلتها نصوص القرآن، يمثّل معالمَ أساسيةً لصياغة منهجية إسلامية في الفكر والبحث والحياة.[١٩]

انتقل المؤلِّف بعد هذا العرض إلى تناول نماذج من الفكر الإسلامي تتعلّق بالمنهج والمنهجية، فبيّن أنّ أصول دلالة المنهج في العلوم الإسلامية كانت نتيجةً لحرص المسلمين الأوائل على حفظ الحديث النبوي الشريف وصيانته من التحريف، فنشأ منهج الإسناد في الرواية الذي تطور فيما بعدُ ليظهر علم جديد (علم التاريخ) يحتوي على قواعد منهجية عامة، وكان ذلك على يد ابن خلدون. إضافةً إلى جهود الحسن بن الهيثم الذي

[١٩] المرجع السابق، ص١٤٢، ١٤٦.

اشترط الجمع بين الحس والعقل للوصول إلى اليقين في دراسته للطبيعة، وكان بذلك مِن أوائل الذين أرسوا دعائم المنهج العلمي التجريبي في الحضارة الإسلامية. وقد بيّن المؤلِّف في هذا العرض كله دعوة القرآن الكريم إلى استخدام منهج معرفي إجمالي يؤُكِّد الجمع بين الكون المنظور والوحي المسطور بوصفهما مصدرين للمعرفة، والجمع بين الحس والعقل بوصفهما أداتين للتعامل مع كلٍّ من الكون والوحي.

تطور مفهوم المنهج في الفكر الغربي

أوضح المؤلِّف كيف تطور مفهوم المنهج في الفكر الغربي منذ الحضارة اليونانية حتى الحضارة المعاصرة، فعرّج على جهود الفلاسفة في الحقبة التي سبقت عصر سقراط، وقد تمثّل ذلك في أعمال الفلاسفة الطبيعيين، وعلى رأسهم طاليس. إضافةً إلى جهود فيثاغورس الذي يُعزى إليه نشأة العلم الرياضي، وذلك قبل أن يقوم السوفسطائيون بإرساء دعائم منهج الخطابة والجدل، الذي وقف منه سقراط موقفاً نقدياً، ليُتوّج هذا الجهد بأعمال أرسطو صاحب الأورجانون الذي عدّه آلة العلم أو التفكير، والذي يعصم صاحبه من الزلل. غير أنّ الحضارة الأوروبية -كما يقول المؤلِّف- عرفت حالةً من الاستراحة الحضارية دامت أكثر من عشرة قرون، ثمّ بزغ فجر جديد لهذه الحضارة، فظهر فيها كلٌّ من: فرانسيس بيكون صاحب كتاب "الأورغانون الجديد" The New Organon، ورينيه ديكارت صاحب كتاب "مقالة في المنهج" Discourse on Method. وقد ثار هذان الفيلسوفان على منطق أرسطو، وعدّاه عقيماً، وغيرَ قادر على توليد معرفة جديدة، أو مواكبة التطور العلمي الذي ظهر في أوروبا.

وقد تطور المنهج في الفكر الغربي على يد علماء الاجتماع، من أمثال: أوجست كونت، وإميل دوركايم، اللذينِ يُعدّان أبرز مؤسّسي العلوم الاجتماعية والإنسانية بتطبيقهما المنهج العلمي التجريبي على هذه العلوم. فقد وضع هذان العالِمان قواعد للمنهج في العلوم الاجتماعية التي تخضع للمنهج الوضعي الذي يُعدّ -برأي واضعيه- وحده القادر على تمكين الإنسان من السيطرة على الطبيعة، وذلك قبل أن تتطور هذه الرؤى، ويتفتّح العقل الأوروبي على أشكال جديدة للمنهج والمعرفة والحقيقة، تمثّلت في

كتابات فلاسفة ما بعد الحداثة، الذين ثاروا على العقلانية والوضعية، فظهرت فكرة المابعديات: ما بعد التاريخ، ما بعد الحداثة، ما بعد العقلانية... .

اختتم المؤلِّف هذا الفصل بقراءة نقدية للرؤية الغربية في تصنيفها وتقسيمها لمراحل تطور العلم وتاريخ تطور العقل الإنساني، بيّن فيها حاجة اللاحق إلى السابق في توجيه الفكر إلى ما هو أكثر نفعاً، ووقف خلالها على جهود علماء الحضارة الإسلامية الذين كانوا حلقة وصل بين اليونان والرومان والحضارة الأوروبية المعاصرة.[٢٠]

ويتعرّض المؤلِّف في **الفصل الخامس** لمدارس المنهجية الإسلامية؛ تمييزاً للرؤية الأحادية من الرؤية التوحيدية للمنهجية الإسلامية، ثمّ أبان بوضوح عن أهمية المنهجية التوحيدية في التكامل والتوحيد بين مستويات العمل المنهجي: التفكير في البحث، وإجراءات البحث، وضوابط العمل البحثي، مستخلصاً أهم الخصائص المميّزة لعدد من المدارس المنهجية: العقلية، والصوفية، والعلمية التجريبية، والفقهية الأصولية. ولـمّا كان الهدف الرابع من هذا الفصل يشير إلى التعدد والتنوع المنهجي في كل مدرسة من مدارس المنهجية الإسلامية، فقد أوضح المؤلِّف خصائص التطور في عدد من المدارس المنهجية في التاريخ الإسلامي، وذكر أمثلةً على العلماء الممثّلين لكل مدرسة من مدارسها.

أشاد المؤلِّف في مقدّمة هذا الفصل بالتعدد والتنوع المنهجي الذي طبع دائرة الفكر الإسلامي ومنهجياته، التي حكمتها خاصية التكامل المعرفي، بدءاً بمنهجية التلقي في زمن الرسول ﷺ، ثمّ منهجية النقد والتوثيق في علم الحديث، ثمّ منهجية استنباط الأحكام الشرعية في علم أصول الفقه، ونشوء مناهج التفسير، وظهور مناهج التعامل مع قضايا العقيدة، ثمّ تطور المنهج العرفاني الذوقي لدى المتصوفة، وانتهاءً بالمنهج العلمي التجريبي مع ابن الهيثم والبيروني... .

لقد احتضنت الحضارة الإسلامية كل هذه المدارس على تنوعها وتعدد مجالات اشتغالها داخل الرؤية التوحيدية التي انطلقت من مبادئ ثابتة، وتوجّهت إلى تحقيق مقاصد جامعة، في نسق معرفي مفتوح، يجمع كل هذا الثراء والغنى بين المبدأ والمقصد وَفق

[٢٠] المرجع السابق، ص١٧٤.

منهجية التعاون والتكامل المعرفي، ويعتمد المراجعة والتصويب والتقويم في حدود مقومات الرؤية الإسلامية للعلم، والمعرفة، والمنهج، والفكر، والحياة.

ولا شكّ في أنّ التعدد والتنوع الذي رافق هذه المدارس ضمن دارة المنهجية الإسلامية، يعكس سعة المجال الذي يمكن أن يشتغل فيه الباحث عندما يتبنّى المنهجية التوحيدية، بحيث يكون عمله شاملاً للتعدد والتكامل والتوحيد، من دون أن يقع في الواحدية؛ لأنّ "التعدد يعني التنوع في الطرق والأساليب المنهجية التي تلبي حاجات التعدد والتنوع في الموضوعات البحثية، والتعدد والتنوع في متطلبات البحث من البيانات والأدوات وأساليب التنظيم والتحليل."[٢١]

وقد أوضح المؤلِّف في تمييزه بين الرؤية الواحدية والرؤية التوحيدية، أنّ عناصر الرؤية التوحيدية تتحدّد في الآتي: أساليب التفكير، وإجراءات البحث، وضوابط السلوك.

فطبيعة الجهد المنهجي في الرؤية التوحيدية هو جهد في الاستمداد من المصادر، وهو أيضاً جهد في توظيف الأدوات، بالإضافة إلى كونه جهد التكامل بين المصادر والأدوات، وهذا ما يميّزه من المنهج الواحدي الذي أصبح عاجزاً عن إجابة بعض الأسئلة ذات الطابع العلمي الصرف. وقد دعم المؤلِّف هذا الموقف بالرجوع إلى أمثلة استقاها من المدارس المنهجية في التاريخ الثقافي الإسلامي؛ كمدرسة المنهج العقلي الكلامي-الفلسفي، ومدرسة المنهج الصوفي، ومدرسة المنهج العلمي التجريبي، ومدرسة المنهج الفقهي والمنهج الأصولي، وهي كلها تعبّر عن منهجية التكامل المعرفي في المنهجية الإسلامية.[٢٢]

تناول المؤلِّف في **الفصل السادس** مصادر المنهجية وأدواتها، وقد هدف من ذلك إلى تحقيق الآتي:

بيان المقصود بالمصادر والأدوات في سياق الحديث عن المنهجية الإسلامية، وتحديد مصادر المعرفة الرئيسة في الرؤية الإسلامية وتسويغ حصرها في مصدري الوحي والكون، ثمّ تحديد أدوات المعرفة الرئيسة في الرؤية الإسلامية وتسويغ حصرها في أداتي العقل

[٢١] المرجع السابق، ص١٨٠.

[٢٢] المرجع السابق، ص٢٠١.

والحس. بعد ذلك عمل المؤلِّف على توضيح مفهوم التكامل في كلٍّ من مصدري المعرفة وأداتيها في المنهجية الإسلامية، ليستخلص بعدها معادلة التكامل المعرفي، مع التمييز بين أدوات التفكير والبحث. ثمّ أبان موقع الأدوات المستخدمة في مناهج البحث السائدة في الدراسات والبحوث الأكاديمية المعاصرة في المنهجية الإسلامية، مُميّزاً بين أدوات جمع البيانات، وأدوات تحليلها، وأدوات تفسيرها.

ولتحقيق هذه الأهداف عمل المؤلِّف على ضبط مفهوم المصدر، ثمّ انتقل للحديث عن مصادر المنهجية، التي لخّصها في الوحي أولاً، والعالَم ثانياً، مع الإشارة إلى تكامل مصدري الوحي والوجود اللذينِ يصعب تخيل وضع حدود فاصلة بينهما؛ لأنّ "القرآن الكريم يجعل نصوص الآيات المتلوّة المسطورة في القرآن مصدراً، ويجعل آيات الله المخلوقة المنظورة في العالَم مصدراً، والله سبحانه هو منزّل الكتاب وهو سبحانه خالق العالَم، فإليه يرجع الأمر كله."[٢٣]

وقد أغنى المؤلِّف موقفه هذا بالرجوع إلى بعض نماذج التراث الإسلامي التي حققت التكامل المعرفي بين مصدري الوحي والوجود في بناء نسق العلوم في الحضارة الإسلامية. هذا من حيث مصادر المعرفة وتكاملها، أمّا بخصوص أدواتها المنهجية فقد حصرها المؤلِّف في أداتي العقل والحس، ولا ثالث لهما؛ لأنّ جميع الأدوات -في رأيه- ترتد إليهما. ولم يتوقف المؤلِّف عند هذا الحد فحسب، بل أجاب عن السؤالين الآتيين: كيف يعمل العقل والحس في الوحي؟ كيف يعمل العقل والحس في العالم؟

وقد استند في إجابته إلى نصوص القرآن الكريم التي تربط فعل القراءة باسم الله؛ لأنّ العالَم الذي يحيط بنا في مختلف مستوياته الطبيعية والاجتماعية والنفسية، إنّما يتم فهمه ودراسته اعتماداً على القرآن، وفي علاقة العالَم به، فيتحقّق التفاعل اللازم بين القرآن والواقع، من أجل إصلاحه، والخروج من مشكلاته وأزماته.[٢٤]

ولا يمكن للباحث أن يحقق هذا التفاعل اللازم بين القرآن والواقع إلّا باستخدام أدوات التفكير التي تتداخل أحياناً مع أنواع التفكير ومهاراته وأساليبه ووسائله، وأدوات

[٢٣] المرجع السابق، ص٢١٣.

[٢٤] المرجع السابق، ص٢٢٦.

البحث في مستوياتها الثلاثة: أدوات جمع البيانات البحثية، وأدوات تحليل البيانات البحثية، وأدوات تفسير البيانات البحثية. وقد خلص المؤلِّف إلى وضع معادلة للتكامل المعرفي، لخّص فيها مجمل ما يمكن فهمه من مصادر المعرفة وأدواتها من منظور إسلامي، وكذلك الربط بين عناصرها المختلفة التي يمكن أن يتضمّنها الفهم. وهذه المعادلة تتكوّن من قسمين: الأول يتعلّق بالمصادر، والثاني يتعلّق بالأدوات، علماً بأنّ صفة التكامل من منظور إسلامي تظهر في ثلاثة مستويات، هي: تكامل المصادر، وتكامل الأدوات، وتكامل المصادر والأدوات.

والتكامل بين المصادر، وتكامل أدواتها، وتكامل المصادر والأدوات؛ كل ذلك من الفطرة، وهو ما انتهى إليه المؤلِّف في خاتمة هذا الفصل.

أمّا **الفصل السابع** الذي جاء بعنوان "المبادئ والقيم المنهجية" فقد قصد فيه المؤلِّف تحقيق الأهداف الآتية:

١. توضيح المقصود بالمبادئ والقيم في مجال الحديث عن المنهجية الإسلامية، وإبراز العلاقة التبادلية والتكاملية بين المبادئ والقيم.

٢. تعرّف مستويات المبادئ المنهجية.

٣. تحديد مبادئ المنهجية الإسلامية في كلٍّ من: التفكير، والبحث، والسلوك.

٤. تحديد المبادئ المشتقة من القيم الإسلامية العليا: التوحيد، والتزكية، والعمران.

٥. بيان أهمية قيمة التوحيد وتمثّلاتها في الفكر والحياة.

٦. بيان أهمية التزكية وشمولها لفكر الفرد وسلوكه، وبناء المجتمع وأنظمته وتعاملاته.

٧. توضيح القيمة المعيارية لمفهوم العمران القرآني التي تُقوّم به الجهود والإنجازات العمرانية للفرد والجماعة والأُمّة.[٢٥]

مقدّمات في مبادئ المنهجية

أجاب المؤلِّف عن السؤال الآتي: ما المقصود بمبادئ المنهجية الإسلامية؟ وبيّن الاستعمالات المختلفة لمصطلح المبادئ، التي تتراوح بين العموم والخصوص. ثمّ تحدّث عن

[٢٥] المرجع السابق، ص٢٤١.

موقع المبادئ ومستوياتها في قضايا المنهجية، فربطها بعملية الإصلاح الفكري بوصفها شرطاً لازماً للنهضة الحضارية للأمة، وهذه الأخيرة تنبني على جملة من المبادئ؛ منها ما هو كلّي عام يرتبط بأركان الإسلام وأركان الإيمان، والقيم العليا، ومنها ما هو جزئي خاص يمكن التمثيل عليه بالآتي:

- مبادئ منهجية التفكير: التفكير الكلي، والتفكير السُّنني، والتفكير السَّببي، والتفكير المقاصدي، والتفكير الاستراتيجي، والتفكير العملي... .
- مبادئ منهجية البحث: التوثيق (الأمانة، الاستقامة، الموضوعية...)، والدليل (عملي، عقلي نقلي).
- مبادئ منهجية السلوك: النية، والاتّباع، والإبداع.[٢٦]

مبادئ المنهجية الإسلامية

يمكن إجمال هذه المبادئ في الآتي:

- مراعاة الاتساق الداخلي والانسجام بين الرؤية الكونية، أو رؤية العالم الإسلامية.
- اعتماد المرجعية القرآنية ضمن مفهوم الوحدة البنائية للقرآن الكريم، والسنّة النبوية بوصفها بياناً لنصوص القرآن، وتطبيقاً لتوجيهاته.
- الجمع بين القراءتين: التوحيدية والتكاملية، اللتين تقودان إلى معادلة التكامل المعرفي.
- إعمال منظومة القيم المنهجية العليا: التوحيد، والتزكية، والعمران.
- تفعيل إسلامية المعرفة التي تشترط التمكّن، والاستيعاب، والتجاوز.[٢٧]

مقدّمات في القيم المنهجية

جاء عرض هذه المبادئ بوصفها مبدأً عاماً من مبادئ المنهجية الإسلامية، وجاء تأكيد هذه القيم بوصفها معاييرَ وضوابطَ حاكمةً لسائر المبادئ الأخرى للمنهجية؛ سواء

[٢٦] المرجع السابق، ص٢٤٨.
[٢٧] المرجع السابق، ص٢٤٩.

كان ذلك على المستوى الفكري النظري والاعتقادي، أو مستوى العمل الإجرائي للتفكير والبحث والسلوك. ثمّ لتوسيع دائرة اشتغال ما يُسمّى أخلاقيات المنهج العلمي في البحث، وربطها بغايات المنهجية الإسلامية. وتتلخّص هذه المبادئ -في رأي المؤلِّف- في الآتي: التوحيد، والتزكية، والعمران.

وقد فصّل المؤلِّف في كل مبدأ من هذه المبادئ والقيم؛ لأنّها تمثّل مرجعيةً مقاصديةً لبيان غاية الحق من الخلق، ومنظومةً معياريةً للقيم التي تنبثق عنها سائر القيم الأخرى. ولهذا كان التوحيد الأساس الأول في ثلاثية القيم الحاكمة؛ لأنّه الحقيقة الكبرى في هذا الوجود، وهي حقيقة تستمد قيمتها من ذاتها، وغيرها من الحقائق إنّما يصدر عنها، مع الإشارة إلى ضرورة تكامل عناصر المنظومة الثلاثية وترابطها؛ تحقيقاً للعبودية الحقّة لله، التي تتعدى إلى مرتبة الإحسان بفعل التزكية للإنسان، الذي يُفضي -بالضرورة- إلى تحقيق العمران والخلافة في الأرض. ومن هنا، فقد حرص المؤلِّف على بيان تكامل الرؤية التوحيدية، وجمعها بين الأبعاد الحضارية: الفلسفية والعملية، وهي الفكرة التي تضمّنها كتاب المرحوم إسماعيل الفاروقي "مفهوم التوحيد وآثاره في الفكر والحياة"، الذي يُعدّ -في رأي فتحي حسن ملكاوي- محاولةً جادةً لتجديد علم الكلام، وإعادة تفعيله في حياة المسلمين المعاصرة، على مستوى النظام الاجتماعي في بُعْديه: الأسرة والأُمّة، وعلى مستوى النظام السياسي الذي يحقق وحدة الأُمّة، وعلى مستوى النظام الاقتصادي الذي يضمن حقوق الفرد والجماعة بعيداً عن الاستغلال والحصار والحِجْر على أيّ فرد أو مجموعة، وعلى مستوى النظام الجمالي والفني الذي يجسّد النسقية في حياة الفرد والجماعة والأُمّة، من دون الفن الذي يجرّد التوحيد من الشرك، والتعالي الإلهي عن التجسيد الطبيعي؛ إنّه الفن الذي يرتقي بالتذوق والإدراك الجمالي، والذي تتحرك فيه العواطف الإنسانية.[٢٨]

بعد التوحيد تأتي قيمة التزكية؛ تزكية الإنسان المخلوق بعد توحيد الله الخالق، بوصفها هدفاً للعمران ووسيلته، وفيها يعمل الإنسان على الارتقاء بمشاعره النفسية

[٢٨] المرجع السابق، ص٢٥٠، ٢٦٣.

وعلاقاته الاجتماعية، بالإضافة إلى تزكية ماله، فتتحقّق تكاملية دلالات مفهوم الزكاة ومجالاتها في الدنيا، لتشمل كل ما يقع عليه تفكير الإنسان، وكذلك سعيه إلى التعرّف والبحث في مختلف ممارساته الحياتية.

وإذا كان التوحيد يتعلّق بالإله الخالق، والتزكية تتعلّق بالإنسان المخلوق المستخلَف، فإنّ القيمة الثالثة (العمران) تتعلّق بوظيفة الإنسان في الكون المستخلَف فيه، التي تأخذ شكالاً ومعانيَ متعدّدةً، منها: حالة الحياة، والإقامة والسكنى والبناء في مكان محدّد، والعمران المادي، والعمران الفكري والثقافي، والعمران والحياة؛ لأنّ حياة الناس في الدنيا لا تتحقّق إلّا باجتماعهم وتعاونهم على شؤونها، تحقيقاً للحياة الطيبة التي يصل فيها الإنسان إلى درجة الاستخلاف والأمانة وعمارة الأرض، والتي يدعو إليها القرآن الكريم. فالعمران "مفهوم كُلّي تتكامل فيه عناصر العمران؛ عمران الأرض بحياة الإنسان، وعمران حياة الإنسان بالخير والعمل الصالح، والارتقاء بأسباب الحياة ومقوّماتها بإنجازات عمرانية مادية ومعنوية، وعمران قلب الإنسان بتقوى الله ورجاء رحمته وغفرانه."[٢٩]

وتأسيساً على ذلك، فإنّ القيم الثلاث (التوحيد، والتزكية، والعمران) تمثّل منظومةً قيميةً متكاملةً، تحتاج الأُمّة إلى اعتمادها مبدأً في منهجيتها في الفكر والعمل والسلوك؛كونها تتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً، وتشكّل بمجموعها منظومةً متكاملةً تُؤسّس لمنهجية التكامل المعرفي.

وجاءت **خاتمة** هذا الكتاب في صورة عناصر أرادها المؤلِّف لتأكيد أهمية ما أورده فيه؛ إذ يمثّل الكتاب طريقةً منهجيةً وتربويةً جيدةً، تعمل على هندسة الأفكار وترتيبها على نحوٍ يسمح للمتلقي أن يستوعبها جيداً، ويمكن للطلبة والباحثين الإفادة من موضوعاته في البحث والإثراء والتطوير؛ سواء أكان ذلك بصورة فردية أم جماعية.

ونحسب أنّ المؤلِّف قد وُفِّق إلى حد كبير في هذا الكتاب، من حيث: الأفكار الورادة فيه، وتقسيماته، وطريقة تناوله للمسائل وتحليلها وربط عناصرها بعضها ببعض، واعتماده التراث الإسلامي والإنساني في بيان أهمية التكامل المعرفي. زد على ذلك أنّ

[٢٩] المرجع السابق، ص٢٨٨.

ورود الملحوظات الختامية بهذه الصورة يُسهِّل على القارئ حسن الفهم، والقدرة على التلخيص، فيتحقّق مقصود المؤلِّف ومراده المعرفي والمنهجي والتربوي. ولهذا الغرض فقد أورد المؤلِّف في خاتمة الكتاب جملةً من المبادئ الأساسية، هي:

- متطلبات تحقيق التكامل المعرفي التي تتضمّن تحديد الدلالة المباشرة لمفهوم التكامل، والتعامل مع أهداف العلوم ومضامينها، وعدم الاقتصار على تاريخ العلوم، والتكامل في شروط تحقيق التكامل المعرفي.
- خصائص منهجية التكامل المعرفي في مجال التفكير.
- منهجية التكامل المعرفي في البحث.
- تمثّل منهجية التكامل المعرفي في مجال السلوك.

وقد اشتمل الكتاب في نهايته على ملحقين: الأول فيه عناوين كتب تضمّنت ألفاظ المنهج والمنهاج والنهج، وهي مفيدة جدّاً، خاصةً للطلبة في بحوثهم ودراساتهم الأكاديمية. أمّا الملحق الثاني فكان تخطيطاً لبرنامج تدريبي في موضوع منهجية التكامل المعرفي، جاءت مقترحاته نتيجةً مباشرةً لخبرة المؤلِّف في الموضوع، ولِما نُفِّذ في أربع دورات تدريبية نظّمها في موضوع مادة هذا الكتاب. [٣٠]

[٣٠] المرجع السابق، ص٣٠٣.